فى حوارى بولاق

بقلم الأستاذ م . محمد عبد الكريم

يعوض الله . . .

واسترعى نداء السقا بقربته انتباهى فأدركت أن الترام قد بلغ بى حى بولاق . . .

ووقفت فى ميدان السبتية أسائل نفسى أين تكون وجهتى ؟ فهـذه طريق توصلنى الى قلب الحى بدروبه وحواريه . وهـذا سبيل غايته حى الترجمان حيث يجد الباحث مجالا للاطلاع والدرس . . وذاك شارع ينتهى بمنطقة الربوع الأثرية الزاخرة بجيوش البائسين .

لم تطل حيرتى إذ استقلت بالرأى قدماى فرأيتنى أشق طريق الى الربوع .

بين الربوع :

والربع فى لغـة عدنان هو المحلة خالية كانت أم مسكونة . أما الربع الخالى فنبؤه عند المستشرق عبد الله فلبى . . . إنما حديثى فى هذا عن الربع الآهل المسكون . . .

فلديك فى الأحياء القديمة بعاصمة بلادك عمارات عتيقة تقوم على مساحات كبيرة وتضم الواحدة منها العشرات أو المئات من الأسرات الفقيرة — تلك هى الربوع .

وبولاق التى نعرض لها فى هـذا المقال من أغنى الأحياء بالربوع ففيها ثلاثة عشر ربعا تضم نيفا وإحدى عشر ألف نفس . . .

وتقوم الربوع عادة على أقبية تسمى الحواصل تتوسطها أفنية تعرف بالوكالات . وكانت الوكالة إلى أمد غير بعيد مقرا لتجارات واسعة كالأرز والزيت والسكر والقطن والذهب . وفى أسماء ربوع بولاق ما يدل على ذلك فهناك ربع الأرز وربع الزيت وربع القطن وربع الذهب وغير ذلك .

ربع الأرز :

على أن أهم هذه الربوع وأحراها بالدرس هو ربع الأرز .

فتى أقصى حى السبتية من الجهة الغربية يرى السائر بناء كبيرا متراحى الأطراف يقوم على مئات من الأقباء المشغولة بالمتاجر تحمل طابقين من المساكن المتراصة النوافذ المتشابهة البنيان. هذا هو ربع الأرز ، أفسح عمارات القطر مكانا وأكثرها سكانا وحسبك أن تعلم أنه يضم أكثر من ثلاثة آلاف نسمة . . وانى مفصل لك وصف ما شاهدت فيه .

صعدت اليه فى سلم مظلم حتى إذا انتهيت وقفت مشدوها أمام مشهد من أعجب ما رأت عيناى . ممر ضيق لا يتسع لأكثر من اثنين ، طويل لاتكاد ترى نهايته ، مسقوف بسقف منخفض تلمسه بيدك تحف به أبواب مائة بيت . . مائة بيت فى بنيان واحد، وكل بيت فى طابقين يصل بينهما سلم خاص .

وحانت منى التفاتة إلى البناء فتكشف أمامى منظر الربع الرائع . . مساكن هى الخرائب بعينها لولا أنفاس تتردد بين جدرانها ، ونوافذ تخلايا النحل تدوى بطنين من فيها ، وفناء كالبحر الزاخر يموج بالناس تتوسطه أكوام الحطب والبوص قوام صناعة السلال التى اختصت بها وكالة الربع ولو أن ثقابا ألقى على هذه الأكوام لذهب الربع ومن فيه طعاما للنار .

أما الممرات والطرقات ففيها كل عجيب غريب : هذا بائع جائل صعد الى الربع ليعرض بضاعته ، وذاك سقاء ينقل الماء ، وتلك عجوز افترشت الأرض بما حملت من حلوى وأطعمة تبيعها سكان الربع .

وليس للنظافة فى الربع أى أثر . فالمياه الآسنة ملقاة فى الممرات يجرى ويحبو حولها الأطفال . والتراب يغطى كل شىء هنالك جمادا كان أو انسانا . على أن حالة الربع مع ماذكرت ليست أسوأ ما رأيت . فلقد شاهدت فى الحوارى والدروب مادو أبشع وأشنع .

بين الحوارى والدروب :

خرجت من الربع فاستقبلنى الحى بدروبه وحواريه . فهنا شارع الجلادين وهناك درب الملاحين ودرب الجمالة ، ودرب الكرشة ، وكلها أسماء هى آثار من التخصص المهنى للاحياء الذى امتاز به التخطيط القديم .

وتتفرع من هذه الدروب وغيرها حوار ملتوية وأزقة ضيقة غفلت عنها عين العناية ومدافنها يد الإصلاح . فليس للتنظيم أثر فيها ولا لعمال النظافة عمل بها ، تقوم على جوانبها بيوت هي المقابر بعينها وحسبي أن أصور لك بيتا كما شهدته .

دخلت حانى الظهر لانخفاض مدخله ، فاذا بي فى كهف كريه الرائحة حالك الظلمة ينبعث فى أقصاه بصيص من نور هدانى الى سلم مهدم أوصلنى — وقد قدر لى أن أصل الى مسكن خوى من كل شئ الا حصيرا أكل البلى عيدانه ، ومرتبة تمزق كيسها فكشف عن خافى قشها ، وموقد من صفيح يشعل بالهشيم والقمامة ، وزير وقدر من نحاس أسود ظاهره وباطنه ، وصندوق ألقيت عليه أسمال بالية . وحول هذا الحطام أم وأربعة أطفال شحبت وجوههم لسوء الغذاء وفساد الهواء ، وأغمضت جفونهم على رمص وحمرة يعولهم أب عجبت اذا نبئت أنه يعمل فى ورشة حكومية ولكن بطل عجبى إذ علمت أنه يتقاضى سبعة قروش كل يوم وأنه مقضى عليه بالتعطل خمسة عشر يوما فى كل شهر حسب نظام المناوبة المعمول به فى الورش الأميرية لذلك لا يتجاوز أجره فى الشهر جنيها واحدا . وللقارئ أن يحاول توزيع هذا الجنيه الواحد على مرافق أسرة من أب وأم وأربعة أطفال .

وقد علمت من الأم أنها تجلب الماء بنفسها شأن بقية سكان الحى ، من حنفية الصدقة وأنها تجمع وأطفالها الوقود من الشوارع والطرقات لاعداد خبز الذرة الذى يحصلون عليه بشق الأنفس .

وليست حالة هذه الأسرة الا مثلا لما عليه أغلبية سكان الحى . بل إن صاحبنا الذى يعمل بجنيه واحد خير بكثير ممن أقعدتهم البطالة بسبب كساد التجارة وخاصة فى أيامنا الحاضرة فلقد شاهدت أينما حللت جموعا غفيرة من الشبان والرجال تزخر بهم المقاهى والطرقات حتى فى الضحى وقت العمل والسعى .

النساء العاملات :

وقد لفت نظرى فى جولتى ظاهرة قد تكون بولاق منفردة بها ، هذه الظاهرة هى كثرة النساء العاملات . ففى وكالات بعض الربوع رأيت مئات من النسوة يعملن فى نفش الصوف والكتان فى جو خانق ملىء بالغبار ، و يوم العمل عندهن عشر ساعات وتتراوح أجورهن بين قرش واحد وأربعة قروش فى اليوم .

وهناك آلاف غير هؤلاء يعملن فى نقل الفلال إلى المطاحن والماء من حنفيات الصدقة لقاء أجر زهيد عدا البائعات المتجولات اللواتى يجبن الشوارع بالخضر والفول وغيرهما .

وقد استرعى انتباهى بوجه خاص بائعات المحشى الجالسات بقدورهن على رءوس الشوارع فذكرتنى بعهد " أم بكير " التى كانت تجلس فى ميدان باب الحديد بقدر المحشى كما يروى لنا معاصروها .

وأكثر النسوة العاملات مسوقات إلى العمل بدافع الحاجة والعوز ، فكلهن من الأرامل أو المطلقات أو ممن تعطل أو أملق أزواجهن فخرجن الى الميدان لسد رمق ذويهن .

فى حى الترجمان وعشش القرود :

ومررت فى حى الخصوص ودرب نصر بين حوارى غريبة الأسماء. فهذا درب ملوخية، وتلك علوة عدس وهذه عطفة المشنوقة ، وشق العروسة ، وذاك درب البطران . على أنى لم أعجب اذ تطلع علينا لوحات مصلحة التنظيم بهذه الأسماء ، فقد شهدنا فى العاصمة ما هو أغرب . فلدينا درب المهابيل و بئر المش ودرب القرودى وحارة الزرايب وعطفة البراغيث وزاوية العميان وشق الثعبان وشق بقوق ، وكفر الطماعين ، ودرب البهلوان ، وغير ذلك من الأسماء التى لا ندرى سر الإبقاء عليها والاحتفاظ بها .

نعود إلى موضوعنا فنقول إن المطاف قد انتهى بنا إلى حى الترجمان حيث سوق العصر وعشش القرود أما سوق العصر فأمره لا يخفى على الكثيرين فهو بؤرة الإجرام فى عاصمة البلاد ، ومقر تجارة المخدرات ، ومحط رحال أرباب السوابق — هذا سوق يعرض فيه كل مسروق، ملابس ودراجات وأدوات حديدية وغير حديدية ؛ وهذه أكوام من الخبز الجاف هى ما جمعه الشحاذون من أحياء العاصمة المختلفة يبيعونها أصحاب البوظات وغيرهم ؛ وتحيط بالسوق طرقات ضيقة ملتوية تبدأ بعشش القرود وهى أخصاص يقيم بها طائفة "القرداتية" ترى على أبوابها القرود والعنزات والكلاب ، وينتهى طريق العشش بحى الترجمان . . .

وحى الترجمان هو المصدر الرئيسى الذى توزع منه المخدرات البيضاء وغير البيضاء ، سرت فيه وكلى عيون ، لأن عيون " الناضورجية " كانت تتبعنى . " والناضورجية " فى مقام العسس عند تجار المخدرات ، فهم يفحصون السائر بعيونهم و يتبعونه ، فاذا غلبهم الشك فى أمره نادوا نداء متفقا عليه فيهرب التاجر بضاعته و يهرب أو يستعد للصراع . . .

الداء :

من الخطأ أن نقول إن لبولاق مشكلة قائمة بذاتها تحتاج إلى علاج خاص . فليس ما قدمنا فى هذا المقال سوى أمثلة قليلة لما هو شائع فى كل أنحاء البلاد نتيجة لمشكلة الفقر التى تشتد وتتفاقم يوما بعد يوم .

وعسير على النفس أن تشهد ببلادنا التى تنعت دواما باليسر وتوصف بالغنى شعبا فقيرا أضناه الجوع وأسقمه الاملاق .

أياد معطلة لقلة الأعمال بسبب احجام الموسرين من المصريين عن استثمار أموالهم واكتفائهم بايداع الملايين الوفيرة خزائن المصارف وصناديق الادخار .

ونساء وأحداث يعملون فى أسوأ الأوضاع مع فئة لاتعرف للعمل قانونا ولا للعامل حقا .

وعجزة وعميان تراهم أينما سرت وتلى قارعة كل طريق لاماجأ يجمعهم ولا هيئات خيرية تتولى أمرهم .

وبيوت هى المقابر بعينها لا تنفذ إليها الشمس ولا يتجدد فيها الهواء ولست أدرى ماذا تفيد المصحات والناس يعودون بعد العلاج إلى مساكنهم مبعث الداء وأصل البلاء .

وفقر مدقع وكفاح شديد للخبز والخبز وحده بسبب انخفاض الأجور وقلة الكسب حتى بين بعض عمال الحكومة .

وقد جر الفقر على الناس أشد الويلات ، فتشرد الأحداث ، وتمهيد سبل الإجرام ماهو إلا نتيجة الفقر .

وإدمان المسكر والمخدر والاتجار بالأعراض وليد الفقر .

وتعدد حوادث الطلاق وارتكاب أكثر الجرائم كل ذلك بسبب الفقر .

فمحاربة الفقر وتحسين حال الطبقة العاملة هما دعامتا الإصلاح وقوام كياننا الاجتماعى .

الدواء :

الدواء فى أيدى الأثرياء وفى أدمغة رجال الحكومة .

فأثرياؤنا مسئولون عن تعطل الأيدى العاملة . هؤلاء الذين يكنزون الأموال فى المصارف قانعين بربح تافه ضئيل ، محجمين عن مشاركة الأجانب ومجاراتهم فى أعمالهم الوافرة الربح العظيمة الأثر هؤلاء يجرمون فى حق أمتهم ويسيئون إلى أنفسهم وذريتهم بتعطيل أموالهم .

أما أولو الأمر فرجاؤنا إليهم أن يعيروا الفقراء وأحياء الفقراء العناية الواجبة .

ولسنا ننكر جهود الحكومة فى السنين الأخيرة لإصلاح حال الطبقة العاملة ، فقد لمسنا أثر هذه الجهود بما سنته الحكومة من شرائع للعمل وأوجبته من حقوق للعمال . وفى بولاق التى تحدثنا عنها شاهدنا المجموعة الصحية ورأينا شارعا مشقوقا وبعض الحوارى مرصوفة ، ولكننا لانكتم الناس الحق فان ما تم ليس إلا جزءا يسيرا ويسيرا جدا مما يجب أن يكون لحالة الطبقة العاملة تحتاج الى علاج جدى حاسم . كما أن تنظيم المساكن يجب أن يقوم على شق الشوارع الجديدة لا على بناء أحياء للعمال خارج المدينة كما رأينا فى مشروع مساكن العمال بامبابة . فإقامة المساكن الجديدة فى ظاهر المدينة فضلا عما ينفق فيه من مال وفير لن يغير من حال الأحياء القديمة شيئا .

والحق أن العقبة التى تعوق تنظيم الأحياء الوطنية عندنا هى المال ولكننا اذا ذكرنا ما تفعله الأمم الغربية فى هذا الباب وجدنا أن الأمر هين ميسور .

فهناك يلجأون الى طريقة تسهل عليهم الاصلاح دون نفقات تذكر ، اذ تنزع الحكومات علاوة على الأرض اللازمة للطريق الجديد ملكية الاراضى القائمة على جانبى ذلك الطريق ثم تباع هذه الأرض للأهلين بأثمان عالية لوقوعها على الشارع الجديد وانتفاعها بالمشروع وبذا تعوض الحكومة ما أنفقته أو تربح .

وبعد فهذه لمحة سريعة ضمنتها ما شاهدت فى جولتى ببولاق وأبنت فيها ما عن لى من رأى فى علاج هذه الحال . وغايتى أن أوجه الأنظار الى الطبقة الغالبة فى الشعب وما تقاسيه فى سكنها وعيشها من بؤس وضيق ، وما تتعرض له بسبب الفاقة من أخطار وأضرار عسى أن يعمل أولو الأمر والمعنون بالإصلاح لتدارك أمرهم قبل أن يشتد الداء ويعز الدواء .

م . محمد عبد الكريم